قسوة القلوب وعلاجها

الحمد لله رب العالمين، نظر في قلوب العباد فوجد قلب رسول الله خير القلوب فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب رسول الله فوجد قلوب أصحابه خير القلوب فجعلهم الله أنصار دينه ووزراء نَبيّه.

وأشهد أن لا إله إلا الله، أحبَّ أرقاءَ القلوب وقرَّبهم، وأبغضَ القاسيةَ قلوبهم وأبعدهم.

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله أرق الناس قلبًا، وألين الناس فؤادًا. صلى الله عليه وسلم. وبعد،،،

فليس أجمع للخير من قلب نقي طاهر لين، وما أجمع للشر من قلب قاسٍ، وإن القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، من الناس من ملأ قلبه برحمات ربانية وهبات إلهية، ومنهم من أغفلها بسواد الحقد والأنانية، وأطفأ نور الفطرة النقية، وما أسوأ مِن أن يقسوا قلب العبد فيتعرض للويل ويتخبط في غيابات الضلال، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ**﴾ **[الزمر: 22]**

فما القلب القاسي؟ وما أسباب قسوة القلب؟ وكيف العلاج؟

القلب القاسي هو الشديد الغليظ الذي ذهب منه اللّين والرّحمة والخشوع، يسمع القرآن فلا يلين له، يرى الحق فيحيد عنه، يقف بين يدي الله ولا يذكره، يشيع الموتى ولا يعتبر بهم، لا يرى إلا نفسه، فلا يرحم الكبير ولا يحنو على الصغير ولا يوقر العلماء ولا يهتم بحاجة المحتاج ولا يتألم لمرض المريض، ولا يعطف على اليتيم والمسكين.

ومن الناس مَن زادت قسوة قلوبهم فصارت أعتى وأشد من الحجارة، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ**﴾ **[البقرة: 74]**

أسباب قسوة القلب كثيرة، من أهمها:

(1) حب الدنيا وطول الأمل والانشغال بما تكفل الله به عما طالبنا الله به، فكم من غادٍ ورائح لا هم له إلا المال، ينشغل الواحد بدنياه عن أخراه، قال تعالى: ﴿**أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ**﴾ **[الحديد: 16]**، كانوا قديمًا يتلاقون فيتساءلون: كم ركعة في جوف الليل صليتَ؟ كم آية حفظتَ؟ كم علمًا أتقنت؟ كم تسبيحة سبَّحتَ؟ أما الآن فأصبحوا يتلاقون فيتساءلون: كم ربحت؟ بكم بعت واشتريت؟ كم عقارًا ملكت؟ كم صفقة أقمتَ؟ وكأنهم يخلدون في الدنيا!

(2) كثرة الكلام، ومن العجيب أن يُنصِّب الإنسان نفسه مصلحًا لأمور غيره، وبيته أولى بالإصلاح، والأعجب أن يتكلم أحدهم عن الفضيلة وهو أبعد الناس عنها، قال سيدنا عيسى ابن مريم عليهما السلام: "لا تُكْثِرُوا الكلامَ بغيرِ ذكرِ اللَّه، فإنَّ كَثْرَةَ الكلامِ بغيرِ ذكرِ اللَّهِ قسوةٌ للقلبِ، وإنَّ أبعدَ الناسِ مِنَ اللَّه القلبُ القاسي" أخرجه الإمام مالك في الموطأ وغيره.

(3) نقض العهد مع الله، فيا مَن عاهدت الله على الحلال تحرَّه، ويا مَن عاهدت الله على التوبة تُبْ، ويا من عاهدت الله على الصلاة الزمها، ويا من عاهدت الله على عفة اللسان وصون الفرج فِ (الوفاء) بعهدك، قال ابنُ عقيل يومًا في وعظه: يا من يجد من قلبه قسوة، احذر أنْ تكون نقضت عهدًا؛ فإنَّ الله يقول: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً** ﴾ **[المائدة: 13] .**

(4) إدمان الذنب وكثرة المعاصي، أخي المسلم لا تستهن بالذنب ولو صغر، فلا صغيرة مع إصرار، ولا تستعظم ذنبًا مع التوبة، فلا كبيرة مع استغفار، واحذر لنفسك من صغائر الذنوب؛ فمعظم النار من مستصغر الشرر، ولا تدري أتتمكن التوبة من هذا الذنب فتمحوه أم تتكالب عليك الذنوب، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} المطففين 14.

أيها المسلمون إن من ابتُلي بداء قسوة القلب فقد ابتلي بمرض شديد، وهو إلى العلاج أحوج من الطعام والشراب والثياب، وإليكم أهم وأنفع علاج لقسوة القلوب:

(1) ذكر الله باللسان والجنان، فالقلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاؤها ذكر الله بالحال والمقال، قال تعالى: ﴿**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾ **[الزمر: 23]**، وما أحلى أن ينتفض القلب فيزيل عنه ركام القسوة حين يرق ويلين لذكر ملك الملوك وقيوم السماوات والأرض، الذي تخر له الجبابرة ساجدة وينحني أمام عظمته كل كبير.

(2) الإحسانُ إِلَى اليتامى والمساكين؛ ولا يقتصر الإحسان على النفع المالي، بل الإحسان بالقول والفعل والنية الحسنة، عن أبي هريرة": "أَنَّ رَجُلًا، شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: **"إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ"** رواه الإمام أحمد بسند جيد.

(3) ذكر الموت وزيارة القبور للاتعاظ وأخذ العبرة، روي أنَّ امرأة أتت السيدة عائشة لتشكو إليها القسوة، فقالت: أكثري ذكر الموت، يرق قلبك وتقدرين عَلَى حاجتك. ففعلت، فآنست من قلبها رشدًا، فجاءت تشكر لعائشة رضي الله عنها. رواه ابن أبي الدنيا. وكان سعيد بن جبير يقول: لو فارق ذكرُ الموت قلوبنا ساعة

لفسدت قلوبُنا. وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أراد أنْ يتعاهد قلبَه يأتي الخربة (المكان المهجور) فيقف عَلَى بابها، فيُنادي بصوت حزين، فيقول: أَين أهلك؟ ثم يرجع إِلَى نفسه، فيقول: كل شيء هالكٌ إلاّ وجهه".

(4) لا ترضَ عن نفسك أبدًا، واتهمها بالتقصير، وأكثر من الدعاء والمناجاة لله أن يلين قلبك فلا تقسو به على غيرك، واتعظ بغيرك، كيف أن الله ابتلى المرضى بأمراضهم واستئناك، كيف أن الله ابتلى الفقراء بفقرهم وأغناك، كيف أن الله ابتلى الخائفين والفزعين وأمَّنك، كيف أن الله ابتلى المظلومين والمحرومين وأعطاك، كيف أن الله ابتلى الجائعين والمطرودين وأطعمك وأسكنك وألبسك. **فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ الأنعام 43.**

وختامًا ألم يأن لتارك الصلاة أن يلبّي حي على الصلاة!

ألم يأن لشارب الخمر أن يطهر فمه بذكر مولاه!

ألم يأنِ لكل متكبر أن يتواضع لعظمة الله!

ألم يأن لكل قاطع رحم أن يصل ما أمر الله!

ألم يأن لكل عين نظرت للحرام أن تغض الطرف!

ألم يأن لكل يد آذت غيرها أن تمتد للعون والمساعدة.

ألم يأن لكل لسان عاب وذم غيره أن يمسك!

ألم يأن لكل قلب قاسٍ أن يلين!

فاللهم إنا نعوذ بك من قسوة القلوب وشدتها، ونعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن دعاء لا يُسمَع ومن عمل لا يُقبَل. واختم لنا في كل أمورنا بخاتمة السعادة والرضا يا كريم، وارحم كل مبتلى، وارفق بأمة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

كتبه فضيلة الشيخ: محمد حسن عبد العظيم حسن. موفد وزارة الأوقاف المصرية بالبرازيل.